

الزمان الدائري مفهوما وتجسيدا في الأساطير العالمية -دراسة نماذج-

**The Circular Concept of Time: A Study of Its Representation in World Mythologies –
Selected Models-**ط. د/ هدى زيوش¹، أ.د/ حورية بوشريخة²¹ قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر 2، أبو القاسم سعد الله (الجزائر).houda.ziouche@univ-alger2.dz² قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر 2، أبو القاسم سعد الله (الجزائر).malekhazine2248@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2025/07/31 تاريخ القبول: 2025/11/30 تاريخ النشر: 2026/01/23

ملخص:

منذ بداية تشكل الوعي الانساني وتعرف هذا الأخير على حقيقة واقعه، وهو يحاول التحكم في مجرياته، والسير بها نحو أهوائه، فاعتبر الزمان تصورا كونيا ورمزيا عميقا رافقه منذ بدايات هذا الوعي، فتشكل عنده بذلك وعي أسطوري، حاول من خلاله تكوين هذا الزمان الدائري، وعلى خلاف التصور الخطي للزمان الذي تبنته المعتقدات الدينية، والذي يفترض مسارا مستقيما نحو النهاية، فإن الزمان الدائري يبنى على فكرة الدورة المتكررة للحياة، حيث لا وجود لنقطة نهاية نهائية، بل سلسلة من الأحداث والتحويلات المتعاقبة، تتكرر عبر الموت والحياة، والفقد وإعادة البعث، ودورة الكون

كلمات مفتاحية: أسطورة، زمان، دائري، الرمز، الكون.

Abstract:

Since the emergence of human consciousness and its early understanding of reality, humans have sought to control the course of events and shape them according to their desires. Time, therefore, became a profound cosmological and symbolic concept that accompanied this awareness from its inception. As a result, a mythological perception of time developed—one that gave rise to the notion of circular time. Unlike the linear conception of time embraced by religious doctrines, which assumes a straight path leading to a definitive end, circular time is founded on the idea of life's recurring cycle. In this view, there is no absolute end point, but rather a continuous sequence of events and transformations—repeating through death and rebirth, loss and renewal, and the ongoing cycle of the cosmos.

Keywords: Myth, Time, Circularity, Symbol, Cosmos..

*المؤلف المرسل: ط. د/ هدى زيوش

منذ فجر الفكر الإنساني، ووجوده على هذه البسيطة، ظل الزمان سؤالاً مفتوحاً تتقاطع عنده التأملات الفلسفية، والتجليات الدينية، فتبنته الأسطورة كبنية أساسية لها، لارتباطه بالوجود والخلق ودورة الحياة. فارتبطت بهذا الأخير-الزمان- مجموعة من التساؤلات إن لم نقل إشكاليات، تبحث فيه وفي ذاته ونوعه وكيونته، يربط مرة بالدورية ومرة بالطولية.

فهل الزمان خط مستقيم يتقدم نحو غاية؟ أم هو دائرة أبدية تعيد نفسها بلا بداية ولا نهاية؟ في قلب هذه الإشكاليات والتساؤلات، والتوتر بين التوجّهين، تبرز الأسطورة بوصفها لغة رمزية، تحمل فكر الشعوب القديمة وآراءهم الكونية، وإذا كان الزمان الخطي شغل الفكر الديني والتاريخي في بعض الحضارات، فإنّ الزمان الدائري ارتبط ارتباطاً وثيقاً عميقاً بالمخيل الأسطوري العالمي، حيث حمل فكرة الموت والبعث، وتعاقب الفصول والظواهر الكونية، التي فسرها بأنها مظاهر لتعاقب كوني أزلي.

وانطلاقاً من هذه الرؤية يتناول هذا المقال مفهوم الزمان، متعمقاً في الزمان الدائري، محاولاً تتبع تجسّداته في عدد من الأساطير العالمية، متتبّعاً رموزه الفلسفية والوجودية، سعياً إلى فهم ما تحمله هذه الدّورة الزّمنية في فكر الإنسان القديم عن الحياة والموت والبعث.

من خلال دراسة بعض النماذج من الأساطير العالمية مثل نموذج منتقاة من الأساطير البابلية والاعريقية والفارسية، لاكتشاف تجليات الزمان الدائري فيها.

ولفهم الزمان الدائري، لا بد أولاً من العودة إلى المفهوم العام للزمان كما ورد في المعاجم وكتب الاختصاص.

1. مفهوم الزمان:

أ/ لغة:

قبل التّوغل في تحليل مفهوم الزمان الدائري وتمثيلاته الأسطورية، يجدر بنا الوقوف عند بعض التعريفات اللغوية للزمان (أو الزمن):

اتفقت المعاجم والقواميس العربيّة القديمة والحديثة على معنى عام لمصطلح "زمن"

- وإن زادت أو أنقصت- فقد وردت تحت معنى "الوقت قليله وكثيره"

ورد في "لسان العرب": الزّمن والزّمان: اسم لقليل الوقت وكثيره، والاسم من ذلك الزمن الزمنية، وقال شمر: الدّهر والزمان واحدٌ، قال أبو الهيثم: أخطأ شمر، الزمان زمان الرطب والفاكهة وزمان الحر والبرد، قال: ويكون الزمان شهرين إلى ستة أشهر، قال: والدهر لا ينقطع (ابن منظور، د ت، صفحة 1867). أما في "القاموس المحيط" اسمان لقليل الوقت وكثيره، ج: أزماًن وأزمنةً وأزمنٌ (الفيروزبادي، 2008، صفحة 720). وهو عند عبد الله البستاني "مدّة ولاية - مدّة حياة- أزمنة السنة وفصولها"

ومنه يمكننا أن نستنتج من هذه المسألة المتعلقة بمادة "ز م ن": أنّ الزّمان مرتبط بالتّحول والامتداد، وبالقياس الطبيعي الذي حدده تعاقب الليل والنّهار، أو الحركة الدورية للكواكب.

يعد الزمان من المفاهيم الإشكالية التي شغلت الفلاسفة والمفكرين منذ العصور القديمة، ويختلف تعريف هذا المصطلح باختلاف المرجعيات الفكرية الفلسفية والعلمية.

يعرفه أوغستين بالمقولة "البسيطة المعقدة" (القديس أوغستين، 1962، صفحة 246) الذي يقول عنه "ما مفهوم الزمن؟

عندما لا يطرح عليا أحد هذا السؤال فإني أعرفه، وعندما يطرح عليا فإني آنذاك لا أعرف شيئا..." هكذا كان جوابه في كتاب "تحليل الخطاب الروائي" للدكتور "سعيد يقطين" جواب مراوغ يظهر مدى شفافية وعمق المصطلح "زمن". ثم يضيف تعريفا آخر يقسم به الزمان إلى فترات ماض وحاضر ومستقبل، فيقول: "نحن آتون من ماض لم يعد، وصائرون إلى مستقبل لم يكن بعد، وليس لنا إلا حاضرات دائمة لا نستطيع الإمساك به، أو الإبقاء عليه، لذلك فلسنا نملك بشأن الزمان أي شيء حقيقي، إنه يبدو كما لو كان خاصة حلمية لوجودنا، ولا يبدو أمامنا ملاذا إلا بالالتجاء إلى الأبدية الكائنة أبدا" (paul tillich, 1966, p. 34)

غير أن أفلاطون لم يعترف بحقيقية الزمان، فاعتبر زماننا هذا الأرضي ليس انعكاسا للزمان الحقيقي الأزلي الأبدي، إذا فهو غير حقيقي (الصديقي، 1995، صفحة 98). والزمان الثابت عنده هو ما أسماه بالأزل، المرتبط بخلق "مبدع العالم"، تلك الصورة الأزلية التي تتطور وفق قانون الأعداد والتي تسمى الزمان (جلال الدين سعيد، د ت، صفحة 232).

أما أرسطو فيربطه بـ "بعد" و"قبل" كما يعرفه قائلا: "الزمان هو عدد الحركة حسب السابق واللاحق، وهو متصل لأنه ينتهي إلى المتصل" (جلال الدين سعيد، د ت، صفحة 232). إذا فقد ربط وجوده بالحركة بحد ذاتها وبوجود الإنسان.

هذا عن التصورات الأولى لهذا المصطلح، أما في الفكر الفلسفي الحديث فلا يخفى عنا أن أهم وأبرز المحاولات الجادة لاستنباط مفهوم -زمن- كانت على يد الفيلسوف الألماني

ايمانويل كانط رائد الاتجاه المثالي النقدي. الذي حاول تعريف هذا المصطلح -زمن- من خلال البحث في ماهيته، فعالج في نظريته اتجاهين، أولهما قدم ماهية الزمان، ثم كيف يتعرف الإنسان على ماهيته. ففكرة الزمان عنده ليس معطى حسي، بل الحواس تفرضها، لأن ما تدركه هذه الحواس لا يمكن تصور آنيته أو تعاقبه إلا بفكرة الزمان، وليس التعاقب هو ما يولد فكرة الزمان، بل هو ما يفرضها ... (جلال الدين سعيد، د ت، صفحة 233). فالزمان عنده ليس شيئا خارجيا، موجودا بذاته في الواقع، بل موجود ومفروض بارتباطه بالأحداث والأفكار، وهي التي توجهه وتفرضه، كما أنه "ليس شيئا موضوعيا وواقعيا، ولا جوهر أو عرض أو علاقة، بل هو شرط ذاتي وضروري بموجب طبيعة الفكر الإنساني، للتنسيق بين محسوسات ما وفق قانون معين، وبالتالي فهو حدس محض" (جلال الدين سعيد، د ت، صفحة 234). إذن فالزمان عنده شرط أساسي لتنظيم تجربتنا الداخلية، إذ نحن لا نراه كما نرى الأشياء، بل نتحسس منه خلال حدوث الأحداث.

وإذا كانت هذه الرؤى المختلفة قد أسهمت في تشكيل مفهوم الزمان في الوعي الإنساني، فإن تنوعها قد أفرز اتجاهين متباينين في فهمه وتصوره: أحدهما يرى أن الزمان خط مستقيم يمتد من نقطة بداية معلومة ويسير ممتدا نحو نقطة نهاية، وهذا الاتجاه يغلب عليه الطابع التاريخي والديني، أما الاتجاه الآخر فينظر للزمان كحركة دائرية أزلية، تتكرر بلا بداية ولا نهاية، وقد ارتبط هذا الاتجاه ارتباطا وثيقا بالمخيل الأسطوري.

ومن هنا يبرز "الزمان الدائري" بوصفه مفهوما مركزيا مرتبطا بالأساطير القديمة، حيث لا تسير الأحداث نحو غاية نهائية بقدر ما تعيد انتاج ذاتها وفق دورة ثابتة، تعكس الفصول، ودورة الحياة والموت والبعث، والدوران الكوني الأبدي.

فما المقصود بهذا الزمان الدائري؟ وكيف تجسد في الأساطير القديمة؟

2. الزمان الدائري:

الزمان الدائري هو تصور كوني يرى أن الزمان لا يسير في خط مستقيم، من الماضي إلى المستقبل، بل يعود على نفسه في دورات متكررة، تتجلى في الطبيعة، والكون والوجود الإنساني، بحيث تعادل كل لحظة بطريقة أبدية. والذي لا شك فيه أن هذا التصور للزمن، ناتج عن أهمية هذا الأخير في حياة الإنسان، "وإذا ما وقفنا على مفهوم الرمزية وجدنا أن هناك تماثيل كثيرة تصور لنا فكرة الزمان، منها تماثيل انسان برأس أسد ممسك بيده كرة -مفهوم شمسي- وإذا كانت تجلله حية تعض ذيلها -فإنه مفهوم الأبدية- وهي رموز للزمن اللانهائي، المعروف لدى الفرس (ذيرفان) و(أيون) أو (كرونوس) عند الاغريق و(ساتورن) عند اللاتين ... " (الصدقي، 1995، صفحة 18).

وهذا ما وجدنا أرسطوا يحاول أن يؤكد، من خلال ارتباط الزمان -عنده- بوجود الانسان، وارتباطه بحركة ما "قبل" وما "بعد"، فالزمان موجود وجود الانسان، حتى وان اختلفت طرق تصوره ورسمه عند مختلف الشعوب. واستمر ذلك الجدل قائما حول فكرة الزمان، حتى القرون الوسطى، حيث تحول الخلاف نحو اتجاه الزمان أهو خطي أم دائري، "فالتصور الأخير إذا للزمن عند كل من الاغريق والهنود والحضارات القديمة الأخرى شكّل عند هؤلاء نوعا ما حسا زمنيا لا يمكن الاستغناء عنه ... حتى قادهم الأمر أخيرا إلى أن يعتبر على أنه (دائري) cyclic، أي متكرر على هيئة فترات منتظمة، وهذا التصور ربما ناجم أيضا أو مستمد من الكون نفسه الذي هو بالتالي دائري، أو كما يقول كورونفورد cornford من دوران السنة أي القرص" (الصدقي، 1995، صفحة 19).

أما أفلاطون فقد ربط فكرة دائرية الزمان بالسرمدية -وهو الدائم الذي لا ينقطع-، وقد ربط هذه السرمدية الدائرية الشكل التي لا تنقطع بالحركة الكاملة للكواكب، وجعل لنهاية كل الكبرى1... وهكذا نرى أن أجزاء الزمان تدور حول نفسها بدلا من أن تسير في خط مستقيم (حسب المفهوم المناقض الذي أخذ من المعتقدات الدينية) مكونة دورة مقفلة لا تلبث من جديد أن تنفتح في شكل دورة أخرى، غير أن أجزاء الزمان التي تشكل هذه الدورة الجديدة هي غير تلك التي كانت أول مرة (بدوي، 1973، صفحة 56).

اعتقد هؤلاء أن الزمان يتكون من دورات متتالية داخل إطار زمني مستمر، وقد استمدوا هذه الفكرة من ملاحظة الكائنات الحية -خاصة البشر والحيوانات - التي تمر بفترة محددة بين الولادة والموت. كما تأثروا بأفكار شرقية، خاصة الهندية، التي تشاركهم هذا التصور إلى حد كبير. وفي هذا السياق يثير أرسطو إلى أن الحركة

الدائرية المنتظمة للنقطة هي أفضل معيار للقياس، لأنها أبسط أشكال الحركة وأكثرها انتظاما، خالية من التعقيد أو التغير المفاجئ. وبما أن الحركة الفلكية -الدائرية في طبيعتها- هي الأكثر انتظاما، فقد اعتبرت أساسا لقياس الزمان، حيث تقاس باقي أنواع التغير بناء عليها (بدوي، 1973، صفحة 52).

ونفس فكرة الاستمرارية تبناها الرواقيون، وبالتالي فالكون عندهم في حالة دينامية مستمرة لا يموت، ومصدر هذا الخلود هو الامتداد اللانهائي للزمن (الصادقي، 1995، صفحة 20)، أما الأستاذة يمينى طريف الخولي فقد وضعت للزمان رسما بينته في كتابها "الزمان في الفلسفة والعلم" على شكل دائرة مغلقة بدايتها ونهايتها متلاصقان، أسمته بالزمان المغلق أو الدائري، مبيّنة تمسك اليونان بفكرة الزمان الدائري الذي تتكرر فيه الأحداث وتتم بشكل دورات متعاقبة، وهذا ما أدى بهم إلى تبني فكرة العود الأبدي الذي وجدت عند البابليين قبلًا، وهيراقليطس، وأنبادوقليس، والرواقيين، كما تبنوا فكرة السنة الكبرى، أو الاحتراق الكلي. هذه الفكرة التي تحمل معنى أن البداية والنهاية يلتقيان، ويرمز لهما بالثعبان الذي يلدغ ذيله (الخولي، د ت، صفحة 31).

وتنعكس هذه الرؤية الدائرية للزمن في بنية الكثير من الأساطير العالمية، حيث تتجلى في أنماط الموت والبعث، ودورات الطبيعة، كما سنرى في النماذج الأسطورية القادمة.

3. الأسطورة كفضاء لتجلي الزمان الدائري:

من بين الأساطير التي رسخت بعمق فكرة الزمان الدائري في المخيال الإنساني، أسطورة عشتار وتموز في حضارة وادي الرافدين باعتبارها تجسيدا لحياة الموت والبعث، والطقوس التكرارية المرتبطة بالازدهار والخصب، وعودة الطبيعة للحياة. تحكي هذه الأسطورة عن علاقة الالهة عشتار والاله تموز، "عشتار التي كانت تسمى عند السومريين بـ "إنانا" إلهة الخصب، وتموز إله الخضار والماشية الذي كان يسمى عند السومريين بـ "دموزي" (فاضل عبد الواحد، د ت، صفحة 09). الاله تموز الذي يموت في كل عام وينزل إلى العالم السفلي فيختل بذلك العالم وينحب عليه، فتنزل زوجته عشتار في محاولة لاستعادته، لإعادة التوازن للحياة.

عشتار التي كانت تصورها الأسطورة بكثرة زواجاتها تلك الزوجات التي يكون الغرض منها دائما غنائم طبيعية، تحيي بها الأرض، وتديم غناها وحياتها، ويظهر لنا ذلك في حوار عشتار مع أخيها "أتو" إله الشمس الذي كان يحاول اقناعها بالزواج من تموز، فمثلا حينها للفلاح "أنكي-أمدو" (الذي سيجعل لها المخازن تتكدس بالحبوب) وتموز الذي سيأتي لها (بالسمن واللبن الطيب والذي تجعل يدها كل شيء نظرا) (فاضل عبد الواحد، د ت، صفحة 64)

لا تنحصر هذه الأسطورة في بعدها السردي، بل تتجاوزه لتكون نموذجا لرسم العلاقة بين الإنسان والطبيعة، والوجود والزمان، فهي تقدم الزمان على شكل حلقة أزلية، لا نهاية لها.

في هذه الأسطورة تتجلى دائرية الزمان بشكل واضح من خلال عملية الموت وإعادة البعث المتكررة، عند موت تموز أو نزوله إلى عالم الأموات تصاب الأرض بالجذب والجفاف والموت، بينما تعود للحياة في دورة متجددة عندما يعود للحياة، يقول د. فاضل عبد الواحد علي في كتابه "عشتار ومأساة تموز" أن الالهة عشتار كانت تجسيدا للخصب في مظاهر الطبيعة المختلفة، وكان الاله تموز القوة الخلاقة التي تبعث الحياة في تلك المظاهر،

أثناء الربيع عندما يظهر العشب وينمو الزرع تتكاثر الماشية ... وفي مرحلة من مراحل الأسطورة رأينا موت تموز ويؤخذ إلى العالم السفلي، وبذلك كيف يمكن التوفيق بين حقيقة موت تموز وبين ضرورة وجوده لبعث الحياة في الطبيعة ... إذا ليس من المعقول أن يموت تموز إلى الأبد (فاضل عبد الواحد، د ت، صفحة 97) لأن اختفاء الكلي سيؤدي إلى اختفاء كل مظاهر الحياة والتجدد على الأرض.

كما يظهر لنا من خلال الرأي الذي توصل له الأستاذ فلكنشتاين عام 1965، وكان من بين تلك النصوص:

(أنت يا "دموزي" لنصف سنة واختك "كشتن-أنا" لنصف سنة) (فاضل عبد الواحد، د ت، صفحة 98)

وهذا يعني أن موت تموز ليس أبدياً، بل يدوم لنصف سنة، ثم يخرج من عالم الأموات حتى تعود أخته "أكشن-أنا" مكانه لنصف سنة أخرى. هذه الدورة التي ربطها سكان وادي الرافدين بالربيع ومطره وخضرته وخيراته، فكان عندهم هذا موسم نزول تموز من عالم الأموات، وبانتهاء الربيع وزوال خضرته واختفاء مظاهر التجدد والعطاء، كان موسم موت الآله تموز وصعوده لعالم الموات.

إن هذه الدورة -الموت، الحزن، البعث، والاحتفال- هي الأساس لبنية الزمان الدائري، حيث يجسد تموز دورة متكررة من الموت والبعث، تعكس النظام الكوني الذي لا يتوقف، وهذه الدورة ليست عشوائية، بل تحكمها شريعة رمزية، وصفها لنا د. فاضل عبد الواحد علي في مراسم الطقوس والاحتفالات السنوية، التي ربطها بضمائم مسببات الخصب والتكاثر، والتي يجري من خلالها استحداث عملية التخصيب من خلال طقوس كما استحدثتها الآلهة في البدئ. وكانت طقوس الزواج الإلهي تعاد كل عام فيقوم ممثلو الآلهة من البشر كالملك أو الكاهن الأعظم بتقمص شخصية الزوج- الآله دموزي بينما تقوم الكاهنة العظيمة بدور الزوجة- الآلهة إنانا في احتفال كبير يعرف لدى المختصين بالزواج المقدس (فاضل عبد الواحد، د ت، صفحة 101). الذي كان يقع في "يوم رأس السنة، يوم الطقوس" وأن الملك يقوم في ذلك اليوم

"يوم القمر الجديد ويوم رأس السنة" بتأدية الطقوس والماراسم. ويظهر لذلك أن الزواج المقدس كان المحور الأساسي الذي يدور حوله عيد رأس السنة (فاضل عبد الواحد، د ت، صفحة 109).

هذا النموذج يظهر كيف حولت الأسطورة الزمان من سلسلة أحداث مستقيمة إلى دائرة مقدسة تعيد نفسها إلى الأبد.

تجدد الفكرة الزمنية نفسها وتتجلى في الثقافة اليونانية القديمة في أسطورة ديميترو وابنتها بروسرينا، فرغم الاختلاف في التفاصيل والأسماء إلا أن النسق البنيوي الزمني المشترك بين الأسطورتين يكشف عن رؤية كونية موحدة ترى في الطبيعة والخصوبة والكون زمناً يعيد نفسه بلا انقطاع.

في الميثولوجيا اليونانية تشكل أسطورة كيريس (ديميتير الإغريقية) ربة الأرض ومحاصيلها وثمارها وهي، شقيقة "جوبيتر"، وتضم عبادتها تقديس بذرة الحياة وكل مظاهرها... وابنتها بروسرينا، ربة وقت الربيع (سلامة، د ت، صفحة 85). أحد أبرز النماذج التي تجسد الزمان بوصفه حركة دائرية تتكرر، لا تمضي نحو غاية أو نهاية محددة، بل تعود على ذاتها في انتظام سرمدى.

تحكي الأسطورة كيف قام هاديس (اله العالم السفلي) بختف بروسرينا، بينما كانت مع صويحباتها تسامر، فخرج رجل أسمر البشرة بغيض الخلقة بعربته من تحت الأرض وانقض عليها وحملها إلى العربة، عائدا مرة ثانية داخل الشق. ولما افتقدت كيرتس (ديميتير) ابنتها علمت بما حدث، فثارت ثائرتها يأسا ... وإذا استسلمت للحزن الشديد، أهملت واجباتها. فذبلت المحاصيل وماتت، وهددت المجاعة الجنس البشري. فحاول "جوبيتر" أن يحث ربة المحاصيل على أن تستأنف عنايتها بثمار الأرض. ولكنها أرسلت له بدورها تخبره بأن قدمها لن تطأ أرض "جوبيتر" مرة أخرى، ولن تنتج حقول الأرض محاصيلها وثمارها مرة ثانية إلا إذا عادت إليها ابنتها (سلامة، د ت، الصفحات 92-93).

ولم يعد التوازن للأرض إلا حينما تم الاتفاق بين ديميتير وجوبيتر بعودة ابنتها، غير أن بروسرينا من شدة فرحها بعودتها إلى أمها خرقت الوعد الذي قطعته على نفسها، بأن تصوم عن الأكل، وكسرت رمانة وأكلت منها ست حبات، وهذا الخرق حتم عليها على أن تعود إلى هاديس (العالم السفلي) ستة أشهر في كل عام. وعلى هذا تختفي بروسرينا، ربة الربيع، عندما ينتهي فصل الصيف، وبما أن كيرتس (ديميتير) تحزن ثانية، فتهمل واجباتها من جديد، فيسود الشتاء الأرض إلى أن تعود بروسرينا ثانية (سلامة، د ت، صفحة 93).

وبهذا ارتبطت دورة الفصول في الميثولوجيا اليونانية بهذه الأسطورة، فوجود بروسرينا عند هاديس يوازي الشتاء والخريف، أما عودتها إلى الأرض فيرمز إلى الربيع والصيف وعودة الحياة للأرض.

إن هذا التكرار المنظم للحدث يعكس تصورا دائريا للزمان، حيث تتكرر الأحداث ليس بشكل عبثي، بل في انسجام مع الطبيعة ودورية الفصول فيها.

وإذا كانت الأسطورتين السابقتين قد مثلتا تمثيلا جليا للزمان الدائري من خلال دورة الفصول المرتبطة بالموت والبعث، فإن الأسطورة الفارسية المرتبطة بتعاليم الزردشتية، تنقلنا إلى تصور أعمق وأوسع للزمان، ليس بكونه مرتبطا بدورة كونية، بل صراعا كونيا دائريا بين قوى الخير والشر.

ففي هذا النموذج الزردشتي لم يتوقف الزمان على دورة الفصول والمواسم، بل يتخذ بعدا ميتافيزيقيا، حيث يعاد خلق العالم بعد نهايته، وتتكرر دورة الوجود في صراع دائم بين النور والظلمة، يعيد نفسه إلى الأبدية، في إطار عقائدي يرسخ مفهوم التجديد الأبدي.

يقوم هذا الصراع حول ثنائية كونية، وهو صراع بين أهورامزدا (إله الخير والنور، الخالق المكلف) وخصمه أهريمان (فكرة الشيطان وروح الظلام والشر). غير أن هذا الصراع الدائم بين القوى المتنازعة سيحسم في النهاية بالنصر والغلبة لصالح قوى الخير والشر، وستدحر قوى الظلام والشر إلى هاوية لا قرار لها (الشفيع الماحي، 2001، صفحة 39).

أما مفهوم الزمان عندهم فهو يختلف عما رأيناه من قبل، فالزمان في المعتقد الزردشتي موجود قبل الوجود، بل هو الذي أوجد الوجود، الزمان عندهم "مطلق وهو "زروان" -أو الزمان اللانهائي- ذو الوجوه الأربعة ... الولادة والصبا، والشيخوخة، ثم العودة إلى المطلق ... تخبرنا الأسطورة أنه أراد ابنا لكنه شك في تحقيق رغبته رغم تقديمه للقرايين لمدة ألف عام، وفي لحظة شكه ولد له توأمان، أهورامزدا تجسيد للخير المطلق، وأهريمن

الشیطان وهو تجسید لشك زروان، وبما أن أهریمن كان الأول في مجيئه للعالم فقد نصب حاكما لهذا العالم مدة 9000 سنة، أما أهورامزدا كان قد منح الكهانة والنصر النهائي " (السواح، 2017، صفحة 18).

وبما أن الاثنين جوهرا متعارضان أساسا، فإنهما حتما باقيان في صراع، قسمه تاريخ العالم عندهم إلى أربع مراحل، كل مرحلة مدتها ثلاثة آلاف سنة... في مرحلة من هذه المراحل يخترق الشيطان حاجز السماء ويتسلط على الانسان الأول والهيمنة الأولى بالمرض والموت ... ولكن في لحظة انتصاره الظاهري قام كلاهما بطرح بذور الحياة ... وبما أن الحياة خرجت من موتها فإن ديمومة الخلق والخير وهزيمة الشيطان هي مؤكدة لا محالة (السواح، 2017، صفحة 15). وسيبلغ هذا الصراع ذروته في لحظة التدمير الشامل وإعادة الخلق، فيما يعرف في النصوص الزردشتية بـ "فرشوكرتي" أي التجديد الكوني. وهنا تتمثل لنا دائرية الزمان، حيث لا يفنى الكون ولا ذلك الصراع بين الخير والشر بل يعاد إلى الحياة كل منهما، ويستمران في صراعهما مع كل دورة تجديدية للكون.

وبهذا تقدم لنا الأسطورة الزردشتية نموذجا فلسفيا وأسطوريا للزمان الدائري، لا يختزل في الطبيعة، وحركة الأجرام السماوية، بل يمتد إلى المصير الإنساني، والوجود الأخلاقي، والحقيقة الكونية، حيث تصبح الحياة كلها عبارة عن حلقة كبرى من تكرار التطهير الكوني نحو الأبدية. كما يظهر لنا المعتقد الزردشتي أن الاله أهورامزدا سيقبض الشر في نهاية الأمر بعد اكتمال دورة الزمن. (السواح، 2017، صفحة 39)

وإذا كانت الزردشتية قد قدمت تحليلا ميتافيزيقيا للزمان الدائري، من خلال صراع كوني أزلي بين قوى الخير والنور وقوى الشر والظلام، الذي لا ينتهي بتجديد الكون والحياة، فإن أساطير شعوب أمريكا الأصلية تلك التي تجسد تيمة الموت والبعث، فهي بدورها تجسد رؤية دورية للزمان، متجسدة في مدى علاقة الانسان البدائي بالطبيعة وشدة ايمانه بعودة الروح. ففي معتقدات الهنود الحمر، يعود الموت من العالم الآخر حاملين رسائل إلى الأحياء. قد يعتبر هذا تكرار رمزي لدورة الحياة، حيث لا يعتبر الموت فيها نهاية، بل هو بداية جديدة، لبعث جديد.

إذا من أبرز التيمات التي تحملها أساطير شعوب أمريكا الأصلية، تيمة الموت والبعث، وبما أنهم يؤمنون بالطوطم والطوطمية فالعودة عندهم لا يجب أن تكون على شكل الانسان الأول، وهذه العودة المستمرة هي من تشكل الحركة الدائرية للزمان التي لا تعرف الانقطاع.

ففي أسطورة الأطفال الضائعين التي قدمها لنا فلاديمير هلباتش في كتابه حكايات الهنود الأمريكيين وأساطيرهم، يقص لنا حكاية سبع إخوة يعانون من الفقر والظلمة والجوع، الذين لم يكونوا يجدون ملاذا في هذه الحياة إلا في الرقص الطقوسي حول نار يشعلونها في الليل لإسكات جوعهم وتعيمهم، إلا أنهم في ليلة من الليالي وبعد أن افتك منهم الجوع والتعب قرروا وبعد تشاور أن يتحولوا لنجوم تزين السماء، وكان لهم ذلك حيث "لبى كبير الأرواح أمنياتهم، وناداهم إليه وأصبحوا نجوما ... ومنذ ذلك الزمان، وكلما أتى الخريف واكتست صغار الجواميس لونا بنيا، يجتمع الأطفال في بلاد الهنود الحمر ويتطلعون نحو السماء ليحصوا الإخوة الضائعين في مجموعة الثريا ... (هلباتش، د ت، صفحة 48)

أما أسطورة النيلوفر الأبيض فتكمل لنا حكاية تلك النجوم اللاتي اكتشفت أن في الأرض قبيلة للهنود، فطلبت إذن زعيمها "القمر" في السماح لها بزيارة القرية، فسمح لها بشرط أن لا تقترب من الأرض فلا تستطيع

الرجوع للسماء، غير أن أصغر النجوم وأكثرها فضولا سقطت على الأرض، وانقلبت في الحال إلى فتاة جميلة تنتحب... لكنها استطاعت أن تنجو وتتحوّل إلى زهرة جميلة "لو استطعت أن أحيا هذا اليوم فقط، فسأتحوّل إلى زهرة في المساء..." (هلباتش، د ت، صفحة 51)، لكن سرعان ما بدأت تلك الفتاة الزهرة تشعر بالملل لوحدها فقررت أن تنزل من على مرجها لتعيش بين بني البشر لتستمع لحكاياهم وأسماهم، غير أنها بعد فترة قررت أن تغير مكانها مرة أخرى وهذا ما أدى مرة أخرى إلى تغيير شكلها، فبعد أن كانت زهرة على سطح المرج، أصبح وهي على سطح البحيرة أزهار بيضاء جميلة، أعجب بها الهنود وقال الأطفال الصغار "لقد نثرت نجوم السماء زهورا، أما الشيوخ الحكماء فقالوا: إنها النجمة البيضاء، جاءت لتعيش معنا" (هلباتش، د ت، صفحة 53)

تبين لنا هتان الأسطورتان ذلك الرباط الوثيق بين شعوب الهنود الحمر وبين الروحانية والطقوسية التي يعتقدون بها، وفي بنيتهما هذه -الرمزية والروحانية- لا تنفصلان عن منطق الزمان الدائري الذي يجعل من الحياة سلسلة من التحولات المتكررة، تعيد كل مرة خلق العالم من رماده، على شكل جديد، ترسخ بذلك تصورا كونيا لا يعترف بالفناء، بل بالتحوّل والعودة والانبعاث.

يتضح من خلال تتبع الأساطير الكبرى في الثقافات المختلفة، أن الزمان لم يكن مجرد إطار لوقائع الحياة، بل كان كياناً حيّاً يحمل دلالات رمزية وروحية عميقة.

ففي الأسطورة البابلية، تمثّل الزمان الدائري في تكرار الصراع الكوني بين النظام والفوضى، حيث يُعاد خلق العالم مع كل احتفال طقوسي، في دورة لا تنتهي من الهدم والبناء، أما في الأسطورة اليونانية، فقد جسّد ثالوث ديميتري، بيرسيفوني، وهيدس فكرة الزمن الموسمي المتكرر، حيث الموت والانبعاث يرتبطان بتناوب الفصول، في انسياب زمني دائري ينظم حياة الإنسان والطبيعة.

وفي النموذج الزرادشتي، يكتسب الزمان طابعاً ميتافيزيقياً أكثر اتساعاً، إذ يُقسم إلى عصور كونية تنتهي بإعادة خلق العالم وانتصار الخير، في تكرار أبدي لمسار الخلق والتطهر، بينما تتجلى الأساطير الأمريكية الأصلية، في بساطتها الرمزية، كتعبير عن صيرورة الحياة والوجود من خلال التحوّل المستمر: كتلك النجمة التي تتحوّل إلى زهرة ثم إلى ورود ماء بيضاء، والتي كانت قبل كل ذلك فتاة جميلة.

كل هذه الأساطير إذا هي تمثيلات سردية للزمن بوصفه دائرة مغلقة تدور على نفسها حيث لا نهاية مطلقة، بل عودة متكررة إلى نقطة البدء.

إن الزمان الدائري في هذه الأساطير لا يعكس مجرد تصوّر بدائي، بل يكشف عن وعي إنساني عميق بالتحوّل، بالولادة والموت، وبالعلاقة الكونية التي تربط الإنسان بالطبيعة والميتافيزيقا، وهو في جوهره، محاولة لفهم الوجود عبر نمط يُكرّر ذاته ليُطمئن العقل أمام لغز الفناء، وليجعل من الموت مقدمةً للحياة، ومن النهايات بدايات جديدة.

قائمة المصادر والمراجع:

- ابن منظور. (د ت). *لسان العرب*. القاهرة: دار المعارف.
- أحمد الشفيق الماحي. (2001). *زردشت والزرادشتية. قسم الدراسات الإسلامية- جامعة الملك سعود، حوليات الأدب والعلوم الاجتماعية، الحولية 21*.
- القديس أوغستين. (1962). "*الاعترافات*" *الكتاب الحادي عشر*. بيروت: المطبعة الكاثوليكية.
- أمين سلامة. (د ت). *الأساطير اليونانية والرومانية*.
- جلال الدين سعيد. (د ت). *معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية*. تونس: دار الجنوب للنشر.
- عبد الرحمن بدوي. (1973). *الزمن الوجودي*. لبنان: دار الثقافة.
- عبد اللطيف الصديقي. (1995). *الزمن وأبعاده وبنيتة*. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
- علي فاضل عبد الواحد. (د ت). *عشتارومأساة تموز*. سوريا، دمشق: الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع.
- فراس السواح. (2017). *موسوعة تاريخ الأديان، الشعوب البدائية والعصر الحجري، الكتاب الخامس*. دمشق، سوريا: دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر.
- فلاديمير هلباتش. (د ت). *حكايات الهنود الأمريكيين وأساطيرهم، من أدب هنود أمريكا الشمالية.. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب*.
- مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي. (2008). *القاموس المحيط*. (تح: أنس محمد الشامي وزكريا جابر أحمد) القاهرة: دار الحديث.
- يميني طريف الخولي. (د ت). *الزمان في الفلسفة والعلم*. القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.
- paul tillich. (1966). *the shaking of the foundations « new york charles scibners » son*.